شعر صبري[١]

في الحادي والعشرين من شهر مارس من سنتنا[٢] هذه نزع الشِّعر العربي عن رأسه عمامة المشيخة ، ونشرها للموت ، فكانت الكفن ، الَّذي طُوي فيه بقيَّة شيوخ الأدب : المرحوم إسماعيل باشا صبري .

كان ـ رحمه الله ـ من الرِّجال الَّذين نشؤوا في تاريخ لا ينشئ رجلاً ؛ وجاؤوا في غير زمنهم ، ليجيء بهم زمنُهم بعدُ ، وهؤلاء إن لم يكن فيهم قوَّةٌ أكبر من القوَّة ؛ فهم أقدارٌ وأحداثٌ تولد وتنشأ ، وتنمو في أسلوبٍ إنسانيٍّ ؛ ليتمَّ بها شيءٌ كان نقصاً ، ويحسن شيئاً كان هجنةً[٣] ، ويوجد أمراً كان عدماً ، ثمَّ ليكون للزَّمن منها حدودٌ يبدأ عند الواحد منها ، فيتغيَّر فيه ، ويتحوَّل به ، ويخرج معه في بعض معانيه زمناً جديداً في رجلٍ جديدٍ .

كذلك كان صبري في منحى من مناحي الشِّعر ، وكان البارودي[٤] ـ رحمهما الله ـ في منحىً آخر ؛ فهما طرفا المحور ؛ الذي استدار عليه هذا الفلك ؛ ليبدأ بعد تاريخه الميت تاريخاً حيّاً ، وليخرج من الجوِّ القاتم في أعراض الأرض إلى الفضاء

---

(١) هو إسماعيل باشا صبري ، توفي ـ رحمه الله ـ في شهر مارس سنة (١٩٢٣) . (س) .

قلتُ : هو شاعرٌ عربيٌّ غنائيّ ، وُلد بمصر . تعلَّم في مصر وفرنسة الحقوقَ . تقلَّب في مناصب القضاء والإدارة . بدأ محاولته الشعرية مبكِّراً . لشعره موسيقا حلوة . جُمع ديوانُه بعد وفاته . كان أستاذاً لكثير من الشعراء ، وعلى رأسهم : أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم .

(٢) المقتطف : مايو ، سنة (١٩٢٣) . (ع) .

(٣) « هجنة » : عيب ، وقُبْح .

(٤) هو محمود سامي البارودي (١٨٣٩ ـ ١٩٠٤ م) : شاعرٌ عربيٌّ ، وُلد بالسُّودان . تعلَّم في المدرسة الحربيَّة بالقاهرة . أتقن التركيَّة والعربيَّة . شارك في عدَّة حروب . نفاه الإنكليز إلى جزيرة سيلان . يُعَدُّ باعثَ النهضة الحديثة في الشعر العربي . طُبع ديوانه بعد وفاته .

المشرق بمعاني السَّماء ، ثمَّ لينفُض عنه في مهبِّ الرِّياح العلويَّة ما لصِق به من طباع أهله ، وأخلاقهم ، ويُغلِق بها ما فتح الزَّمن عليهم من أبواب هذه الحرفة . فكان الشِّعر في حاجةٍ إلى رجلٍ كالملك ، فأصاب رجلين ، وعلم الله ما رأيت في كلٍّ من رأيتُهم من الشُّعراء نفساً تعدُّ معهما . ولا خُلقاً يجري في أخلاقهما ، ولا ظرفاً ، ولا رقَّةً ، ولا أدباً ، ولا شيئاً يصلح أن يكون شرحاً منهما ، أو توكيداً لشيءٍ فيهما ، أو تقويةً لمعنى من معانيهما ، كأنَّما وجدا ؛ ليكون أحدهما مبدأً ، والآخر نهايةً ، ولينفردا انفراد الطَّرفين من المسافة بالغةً ما بلغت .

كان الشِّعر لعهدهما بقيَّةً رثَّةً في معرضٍ خَلَقٍ ممَّا كان يسمِّيه أدباءُ الأندلس بالأعراض المشرقيَّة ، وطريقة المشارقة ، وهم يعنون بذلك الصِّناعة ، والتَّكلُّف البديع ، والانصراف إلى اللَّفظ ، واستكراهه على الوجه الذي أرادوا ، إلى ما يتشعَّب من ذلك ، ويخرج ، أو يدخل في بابه ، وقد كان هذا ومثله ممَّا يُساغ ويُحتَمل في القرن الثَّامن ، وأكثر التَّاسع للهجرة ؛ ثُمَّ في أيَّامٍ بعد ذلك ، غير أنَّه بلي ، وتهتَّك في مصر خاصَّةً ، ولم يبقَ منه إلى منتصف القرن الثالث عشر إلا رقعٌ ، وخيوطٌ في قصائد ، ومقاطيع .

ثمَّ كان أكثر الشُّعراء يومئذٍ إنَّما يحترفون فنَّ الأدب صناعةً ، كسائر المهن ، والصِّناعات ؛ الَّتي بها قوام العيش لهؤلاء المستأكلين ، والمتكسِّبين من السُّوقة ، والمرتزقة .

* * *

ظهر البارودي ، ونبغ في شعره قبل أن يقول صبري في الشِّعر بسنواتٍ ، ولكنَّ الأدب الفارسيَّ ، والجزالة العربيَّة هما اللَّذان تحولا فيه ، ثم نبغ صبري بعد ذلك بزمنٍ ، فتحوَّل في الأدب الإفرنجيُّ ، والرِّقَّة العربيَّة ، وهذا موضع التَّفاوت في شعر الرَّجلين اللَّذين اقتنصا الخيال الشِّعريَّ من طرفي الأرض ، وكلاهما يذهب مذهباً ، ويرجع إلى طبعٍ ، ويروض شعره على وجهٍ ؛ فالباروديُّ يستجزل ، ويجمع إلى سبكه الجيِّد قوَّةَ الفخامة وشدَّة الجزالة ، ثمَّ يعترض الخيال من حيث يهبط على النَّفس في ممرِّ الوحي . وصبري يسترقُّ ، ويضيفُ إلى صفاء لفظه جمال التَّخيُّر ، وحلاوة الرِّقَّة ، ويعارض الفكر من حيث يتَّصل بالقلب . والباروديُّ لا يرى إلا ميزان اللِّسان ، يقيم عليه حروفه ، وكلماته . وصبري لا يرى إلا ميزان

الذَّوق ؛ الَّذي هو من وراء اللِّسان ؛ وقد يُسِّرت لكليهما أسباب ناحيته في أحسن ما يتصرَّف فيه ، فجاء الباروديُّ حافظاً كأنَّه مجموعةٌ من دواوين العرب ، والمولَّدين ، وجاء صبري مفكِّراً كأنَّه مجموعة أذواقٍ ، وأفكارٍ ، وهما يشتركان معاً في التَّلوُّم على صنعة الشِّعر ، والتَّأنِّي في عمله ، وتقليبه على وجوهٍ من التَّصفُّح ، وتمحيصه بالنَّقد ، والابتلاء لفظاً ، وجملةً جملةً ، ثمَّ مطاولة معانيه ، ومصابرتها ، كأنَّما ينتزعان محاسنها من أيدي الملائكة ، وأنا أعرف ذلك فيهما ، وقال لي صبري باشا مرَّةً وقد جاريته في بعض هذا المعنى : إنَّه يعلم هذا من البارودي ، ومن نفسه . قلت : أفيبلغ به ذلك أن يمحو بياض اليوم في سواد بيتٍ واحدٍ ؟ قال : وفي سواد شطرةٍ أحياناً ! وليس ينقصهما هذا الأمر شيئاً ، فإنَّ خبر زهيرٍ في حوليَّاته معروفٌ ، وقد عمل سبع قصائد في سبع سنين ، يحوك القصيدة منها في سنةٍ .

ونقلوا عن مروان بن أبي حفصة : أنَّه قال : كنت أعملُ القصيدة في أربعة أشهرٍ ، وأحكمها في أربعة أشهرٍ ، وأعرضُها في أربعة أشهرٍ ، ثُمَّ أخرج بها إلى النَّاس ؛ فقيل : هذا هو الحوليُّ المنقَّح .

كان مرجع الباروديّ إلى الحفظ ، فنبغ في وثباتٍ قليلةٍ ؛ أمَّا صبري ؛ فاحتاج إلى زمنٍ حتَّى استحكمت ناحيتُه ، وآتته أسبابُه على الإجادة ؛ لأنَّ مرجعه إلى الذَّوق ، وهذا يكتسب بالمران ، وينضج عند نضوج الفكر ولا يأتي بالماء ، والرَّونق حتَّى تأتي له أسبابٌ كثيرةٌ ، وأنت تعرف ذلك في الرَّجلين من أوائل شعرهما ، فقد رثى الباروديُّ أباه في سنِّ العشرين بأبياته الدَّالية الشَّهيرة ؛ الَّتي مطلعها :

لا فارسَ اليومَ يحمي السَّرج بالوادي طاح الرَّدى بشهاب الحي والنَّادي

وهي ثمانية عشر بيتاً ، وجيِّدها جيِّدٌ ، وكأنَّها خرجت من لسان أعرابيٍّ ، وإنَّما جاءته من صنعة الحفظ ، كالَّذي اتَّفق للشَّريف الرَّضيِّ في أبياته الخائيَّة الَّتي كتب بها إلى أبيه ، وعمرُه أربع عشرة سنةً ، وكان أبوهُ معتقلاً بقلعة شيراز ، ومطلعها :

أبلغا عنِّي الحسين ألوكا إنَّ ذا الطَّود بَعْدَ بُعْدِكَ ساخا
والشِّهابُ الَّذي اصطليتَ لظاهُ عكستْ ضوءَهُ الخطوبُ فباخا

هذا على أنَّ البداية كما يقول مزلَّةٌ ، وقد وُفِّقنا إلى الوقوف على أوَّل ما نُشر من

شعر صبري باشا ، وذلك قصيدتان نُشرتا في مجلَّة روضة المدارس في مدح إسماعيل باشا ، فنشرت الأولى في العدد الصَّادر في غاية شوَّال سنة ١٢٨٧ للهجرة ـ ١٨٧٠ للميلاد ؛ ونشرت الثانية في عدد شهر ربيع الآخر من سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م ، وبينهما خمسة أشهر ، كانت وثبتُه فيها ضعيفةً متقاصرةً ، ممَّا يدلُّ على بطء نضجه بطبيعة الأسباب الَّتي تسبَّب بها الشِّعر ، وكانت الرَّوضة يومئذٍ تنشر لطائفةٍ من فحول دهرهم ، كالسَّيِّد صالح مجدي ، ورفاعة بك رافع ، ومحمَّد أفندي قدري « ونابغة الزَّمان محمَّد أفندي رضوان » ، وغيرهم . وكانت تستقبل قصائدهم بسجعاتٍ داوية مفرقعةٍ ، هي لذلك العهد أشبه الأشياء بطلقات مدافع التَّحيَّة للملوك ، والأمراء ؛ فلمَّا نشرت لصبري قالت في القصيدة الأولى : « تهنئة بالعيد الأكبر للخديوي الأعظم بقلم إسماعيل صبري أفندي » . وقالت في الثانية : « قصيدة رائيَّة في مدح الحضرة الخديويَّة من نظم الشَّاب النَّجيب إسماعيل صبري أفندي من تلامذة مدرسة الإدارة » . ومطلع القصيدة الأولىٰ :

سَفَرتْ فلاحَ لنا هِلالُ سُعودِ ... ونَما الغرامُ بقلبيَ المعمودِ

ولا شيء فيها أكثر من حروف المطبعة . . . ومطلع الثَّانية :

أغُرَّتكَ الغرَّاء أمْ طلعةُ البَدْرِ ... وقامتُك الهيفاء أمْ عادل السَّمْرِ

وفي هذه القصيدة بيتٌ وقفت عنده أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنَّه خيالُ مولودٍ يَستَهِلُّ ، وذلك قوله :

فطوِّلْ من الهُجران عليَّ وقوفنا ... يطول معاً ـ يا قاتلي ـ ساعةَ الحَشْرِ

ويكاد هذا البيتُ يكون أوَّل انقلابٍ لفكرة فيه ، وهو غريبٌ ، والتَّأمُّل فيه أغرب ، ولكنَّه يدلُّ على خيالٍ سيثب يوماً على أقطار السَّموات .

وفي ذلك الزَّمن عينه كان البارودي شهاباً يتلهَّب ، وكان قد بلغ مبلغه ، واستجمع أسباب نهايته ، بل هو نظم قبل ذلك بستِّ سنواتٍ قصيدته الشَّهيرة :

أخذَ الكرى بمعاقدِ الأجفانِ ... وهفا السُّرى بأعنَّة الفُرسانِ

فلم يكن ليذهب وجه الشِّعر عن صبري ، ولم يكن ليغضي عن احتذاء هذه الصَّنعة البارعة ، ويأخذ في غيرها لولا أنَّ فيه طبعاً مستقلاً يذهب إلى كمالِه في أسلوبٍ آخر ، كأسلوب كلِّ زهرةٍ في غصنها ؛ وأخصُّ أحوال صبري : أنَّه لم يرد أن يكون شاعراً ، فجاء أكبر من شاعرٍ ، وكان السَّبب الَّذي صرفه من ناحيةٍ هو نفسُه

الَّذي جاء به من ناحيةٍ أخرى .

* * *

ينبغ الشَّاعر بأربعة أشياء لا بدَّ منها ؛ طريقة الدَّرس الَّتي عالج بها الشِّعر ، وكُتُب هذه الطَّريقة ، والرِّجال الَّذين هم أمثلتها في نفسه . ثمَّ . . . ويالله من ثمَّ هذه ، فهي اللَّمحة السَّماويَّة الَّتي تشرق على فؤاد الشَّاعر من وجهٍ جميلٍ ، والثَّلاث الأولى تنشىء نبوغاً معروفاً في نوعه ، ومقداره ، ولكن الأخيرة هي طريق القدر الَّتي لا يُعرف آخرها ؛ وإذا تجدَّدت في حياة الشَّاعر ، أو اتَّصلت تجدَّد بها نبوغُه ، أو اتَّصل ، فعلى قدر ما يحبُّ تحبوهُ السَّماء من أسرار الجمال ، وهي نفسها أجمل أسباب الشِّعر ، وأجمل معانيه ، وأجمل غاياته ، فهي هي المادَّة الَّتي تؤلِّف بين نفس الشَّاعر ، وبين معنى الجمال الشِّعريِّ في هذا الكون كلِّه ؛ وإذا أنت نزعت النَّظرة والابتسامة ـ وهما عنصرا تلك المادَّة ـ من حياة الشَّاعر ؛ نزعت الحياة نفسها من شعره ، فما يبقى منه إلا مقبرةٌ للألفاظ والمعاني ، وتسمع شعره ، فلا تجزيه بهِ أحسن من قولك : يرحمك الله . . . وصبري لم يدرس الشِّعر في الكتب أكثر ممَّا درسهُ في الوجوه ، والعيون ، وقد عالج هذا الشِّعر في بدايته ليتأتَّى إليه من طرقه البعيدة ؛ أمَّا الرِّجال الَّذين كانوا أمثلتهُ ؛ فكانوا رجال الظَّرف ، والرِّقَّة ؛ والنُّكتة المصريَّة الشَّهيرة ؛ الَّتي انفرد بها الطَّبع المصريُّ ، ونصَّ عليها علماء البلاغة ، كالسَّكَّاكي ، وغيره ؛ بل كان عصرُه كلُّه هذه النُّكتة ، فتحوَّلت في طبعه الرَّقيق المبتكر تحوُّلاً رقيقاً مبتكراً ، أرجعها إلى الظُّرف المحض الَّذي اجتمعت فيه كلُّ طباعه كما يجتمع السَّحاب من الماء .

ولقد كان في شعرِه أحقَّ النَّاس بقول ابنِ سعيد المغربيِّ :

أسُكانُ مصرَ جاورَ النِّيلُ أرضَكم ... فأكسبكم تلك الحلاوةَ في الشِّعرِ
وكانَ بتلك الأرض سحرٌ فما بقي ... سوى أثرٍ يبدو على النَّظم والنَّثرِ

وإنِّي أعلم : أنَّه كان دائم الحبِّ ، يمزج ذكرى ماضيهِ بحاضرهِ ، فيخرج منهما حبّاً جديداً ، وكان الرَّجل كأنَّه مجروح القلب ، فلا يزال يئنُّ حتَّى في بعض أنفاسِه ؛ إذ يرسل النَّفس الطَّويل بين هنيهةٍ وأخرى ، كأنَّه يريد أن يطمئنَّ : أنَّ نَفسه فيه ، أو أنَّ شيئاً باقياً في نَفسه ؛ وتلك همهمةٌ لا تكون في شاعرٍ من الشُّعراء بغير معنى .

كانت النَّظرة ، والابتسامة تتمثَّل له حيث شاء ، وتعترضُه حيث أراد أن يراها ، فيجد في كلِّ شيءٍ روحاً من الشِّعر ، ويقرأ لمحاتها متى التمعت ، وكان يعيش في ذات نفسه كأنَّه معنىً في قصيدةٍ هو أمير أبياتها .

فشاعرنا هذا أخرجه اثنان : الظَّرف ، والجمال ؛ وهذا سرُّ إبائه أن يُعدَّ من الشُّعراء ؛ لأنَّه أرفع من أن يدخل بينهم في هذه المحنة ، والبلوى ؛ الَّتي ابتلوا بها .

ولقد همَّ صبري في أواخر عمرِه بمحو شِعره لو أنَّه كان في منال يده ، على أنَّه محا منه بإهماله أكثر ممَّا أثبت ، وعلمت منه : أنَّه لم يدوِّن شيئاً ، وأنَّه ينسى ما يقوله ، فكأنَّه يوجد بسببٍ واحدٍ ، ويمحق بسببين ؛ وقديماً كان كبار العلماء متى انتهوا إلى التَّحقيق رأوا عمرهم كلَّه بدايةً ، ورأوا ما فعلوا باطلاً ، فغسلوا كتبهم ، أو أحرقوها ، ولكنَّا لم نعرف هذه الطَّبيعة في شاعرٍ بعد عصر الكتابة والتَّدوين ، وإن كان بعضهم يأنف لنفسه أن يُعدَّ من الشُّعراء ، وهو مع ذلك يجمع يدهُ على شعره ، كالشَّريف الرَّضيِّ ؛ الَّذي يقول :

مـا لـك تـرضـى أن تُعَـدَّ شـاعـراً   بُعـداً لهـا مـن عَـدَد الفضـائـلِ

ويقول في مدح أبيه :

إنِّـي لأرضـىٰ أن أراك ممـدَّحـاً   وعـلاكَ لا نـرضـىٰ بـأنِّـي شـاعـرُ

ومثلُه أبو طالب المأموني ، وآخرون يدَّعون ذلك دعوى ، وفي ألسنتهم ما ليس في قلوبهم .

ولإفراط صبري في الظَّرْف ، والجمال ، وقيام شعرِه على هذين الرُّكنين ، جاء مقلاً من أصحاب القِصار ، وزاد إقلاله في قيمة شعره ، فخرجت مقاطيعُه مخرج الشَّيء الطَّريف ؛ الَّذي يُتعجَّب منه في وجودِه أكثرَ ممَّا يُتعجَّب منه لقلَّة وجودِه ، وبذلك ربح تعب المكثرين ، والمطيلين ؛ إذ كان لا يقول إلا فيما تؤاتيهِ السَّجيَّةُ ، وينزع له الطَّبع ، فيدنو مأخذه ، ويكثر بقليلِه ، ويرمي منه بمثل الحجَّة ، والبرهان ، فيطمس بهما على كلامٍ طويلٍ ، وجدلٍ عريضٍ .

ولا يعيب المقلَّ : أنَّه مقلٌّ إذا كثرت حسناتُه ، بل ذلك أعون له على القلوب ، والنُّفوس إذا أصابت في شعرِه ما يغريها بطلب المزيد منه ، وقد عدُّوا بين المقلِّين

في الجاهليَّة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وعديّاً بن زيد ، وسلامة بن جندل ، وحصيناً بن الحمام ، والمتلمِّس ، والحارث بن حلِّزة ، وابن كلثوم ، وغيرهم أتينا على أسمائهم في الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) ؛ ومن أولئك مَنْ يُعرف بالقصيدة الواحدة ، كطرفة ، ومنهم من يعرف بثلاث قصائد ، كعلقمة ، أو بأربع ، كعديٍّ بن زيد ، ومنهم من يُعرف بالأبيات المتفرِّقة ، ولا عبرة بما ينسب إليهم عند غير المصحِّحين ، وأهل التَّحقيق ، فإنَّ الحمل على شعراء الجاهليَّة كثيرٌ ، وقد يَعرفون الشَّاعر بالبيت الفرد ؛ لأنَّ العرب إنَّما يعتبرون الشِّعر بمقدار ما يحرِّك من ميزانه الطَّبيعي الذي هو القلب ، لا بالطُّول ، ولا بالقصر ، وقد قالوا في بيت النَّابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه   على شعَثٍ[1] أيُّ الرِّجال المهذَّبُ ؟

إنَّه لا نظير له في كلام العرب ؛ وما ذلك إلا على الاعتبار الَّذي أشرنا إليه . وكانوا يسمُّون البيت الواحد : يتيماً ، فإذا بلغ البيتين ، والثَّلاثة فهي نتفةٌ ، وإلى العشرة تسمَّى : قطعةً ، وإذا بلغ العشرين استحقَّ أن يسمَّى : قصيداً .

وكان من الشُّعراء مَن يتعمَّد أن لا يجيء في شعرِه الجيِّد بغير البيتين ، والثَّلاثة إلى القطع الصَّغيرة ؛ كشاعرنا صبري باشا ؛ ومنهم عقيل بن عُلفة : كان يقصِّر هجاءَهُ ، ويقول : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومنهم أبو المهوِّس ، وكان يحتجُّ لذلك بأنَّه لم يجد المثل النَّادر إلا بيتاً واحداً ، ولم يجد الشِّعر السَّائر إلا بيتاً واحداً ؛ ومنهم الجمَّاز ، قال له بعضهم ؛ وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت ، والبيتين ؟ ! فقال : أردت أن أنشدك مُذارعةً ! . . وابن لنكك المصري ، وابن فارس ، ومنصور الفقيه ؛ الذي كان يقال فيه : إذا رمح بزوجيهِ قتل ، ولا نستقصي في هذا ، فلندعه فإنَّ له موضعاً .

غير أنَّ صبري كان له مع جودة المقاطيع جود القصيد إذا قصَّد ، كقوم عرفوا بذلك في التَّاريخ ، منهم العباس بن الأحنف ، وسواهُ ، وكان من أسباب إقلالِه ما أعلمني به من أنَّ طريقته في أكثر ما ينظِم معارضةُ معنىً يقف عليه أو تضمين حكمةٍ ، أو ضرب مثلٍ على طريقة النَّظر ، والملاحظة ، أو تدوين خطرةٍ عرضت

---

(١) « شعث » : الشَّعَثُ : ما تفرَّق من الأمور .

له ، أو لمحةٍ أوحيت إليه ، وهو ينزل في ذلك على النَّصَفة والمعدلة ، فلا ينتحل شيئاً ليس له ، بل يدلُّك بنفسه على الأصل الَّذي منه أخذ ، أو المثال الَّذي عليه احتذى .

قال لي مرَّةً : إنَّ البستانيَّ عقد حكمةً فارسيَّةً في قوله :

قضيتَ إلهي بالعذاب فيا تُرى ... بأيِّ مكانٍ بالعذاب تدينُ
وليس عذابٌ حيثما أنت كائنٌ ... وأيُّ مكانٍ لست فيه تكونُ ؟

ثمَّ قال : فأخذت من هذا المعنى ، وقلت :

يا ربِّ أينَ تُرى تُقام جهنَّم ... للظَّالمينَ غداً وللأشرارِ
لم يُبق عفوُك في السَّموات العُلى ... والأرض شبراً خالياً للنَّارِ
يا ربِّ أهِّلْني لفضلك واكفِني ... شطَطَ العقول وفتنةَ الأفكارِ
ومُرِ الوجود يشفُّ عنك لكي أرَى ... غضبَ اللَّطيف ورحمة الجبَّار
يا عالِمَ الأسرار حسبيَ محنةً ... عِلمي بأنَّك عالمُ الأسرار

والفرق بين الشِّعرين : أنَّ البستانيَّ جاء بكلامِه على طريقة المتصوِّفة الَّتي يسمُّونها طريقة أهل التَّحقيق ، كابن العربيِّ ، والششتري[1] ، وأمَّا صبري فانظر كيف استوفى ، وكيف لاءَم ، وكيف امتلأت أعطاف شعرِه ! !

وقد يأخذ المأخذ الدَّقيق ، الَّذي لا ينتبه له إلا المُطَّلع الحاذق بصناعة الكلام كقوله :

إذا ما صديقٌ عَقَّني بعداوةٍ ... وفوَّقت[2] يوماً في مقاتله سهمي
تعرَّض طيفُ الودِّ بيني وبينه ... فكسَّر سهمي فانثنيت ولم أرمِ

فهذا ينظر إلى قول الحارث بن وعلة :

قومي همُ قتلوا أميم أخي ... فإذا رميتُ يُصيبني سهمي

---

(١) الششتري : هو علي بن عبد الله النميري (١٢٠٣ ـ ١٢٩٦) : شاعرٌ صوفيٌّ . وُلد بالأندلس ، وتنقَّل بين الأندلس والرباط ، ومكناس ، وفاس ، ودمشق ، ومكَّة . ألَّف عدَّة كتب في التَّصوُّف ؛ كالمقاليد الوجوديَّة في أسرار الصُّوفيَّة . نَظَم الموشَّحات ، والقصائد بالعامِّيَّة والفصحى في التَّصوُّف . له ديوان شعر مطبوع .

(٢) « فوّقت » : فوَّق السَّهم : جعل له فُواقاً . والفوق من السَّهم : حيث يثبت الوتر منه .

ولكنَّه ليس بذاك ؛ فإنَّ أساس المعنى قوله : « تعرَّض طيف الودِّ بيني وبينه » وهو من قول العبَّاس بن الأحنف :

وإذا مـا مَـدَدْتُ طَـرفـي إلـى غيـ ـــرك مُثِّلـتَ دونـهُ فـأراكـا

فتأمَّل كيف أبدع في انتزاع المعنى ، وكيف جعل له معرضاً جديداً ، وكيف أدَّاهُ أحسنَ تأديةٍ في ألطف وجهٍ كأنَّه شيءٌ مخترعٌ .

ومن شعرِه السَّائر قوله في العِناق وتلازم الحبيبين :

ولمَّـا التقينـا قَـرَّبَ الشَّـوقُ جهـدَهُ شجيَّيـن فـاضـا لـوعـةً وعتـابـا
كـأنَّ صـديقـاً فـي خِـلال صـديقِـه تسـرَّب أثنـاء العِنـاق وغـابـا

وهذا المعنى ـ على إبداعِه فيه ـ متداولٌ ، وأصله لبشَّار ـ أظنُّ ـ في قوله[1] :

وبتنـا جميعـاً لـو تُـراقُ زجـاجـةٌ من الخمـر فيمـا بيننـا لـم تسـرَّبِ

فأبدع صبري في أخذِه وجعل من هذه الزُّجاجة المنصدعة جوهرةً تتأنَّق ؛ على أنِّي لا أستحسنُ قوله « كأنَّ صديقاً . . . » فما هذا بعناق الأصدقاء ولو كان الصَّديقُ راجعاً من سفر الآخرة ! وإذا غاب واحدٌ في الآخر فالآخر حامل به . . . وقد أخذت أنا هذا المعنى منه ، ولولاه ما اهتديت إليه ، فقلت في ذلك :

ولمَّـا التقَينـا ضمَّنـا الحـبُّ ضمَّـةً بها كـلُّ ما فـي مهجتَينـا مـن الحـبِّ
وشـدَّ الهـوى صـدراً لصـدْرٍ كـأنَّمـا يـريـدُ الهوى إنفاذ قلبٍ إلى قلبِ

* * *

وأحسنُ ما تجد شعر صبري في الغزل ، والنَّسيب ، والوصف ، والحكمة ، فهي عناصر قلبِه وذوقِه ، ولا يَتصرَّف معه أقوى ما يتصرَّف إلا في هذه الأغراض ،

---

(١) البيت لعليِّ بن الجهم . وقبله :

ألا رُبَّ ليـلٍ ضمَّنـا بعـد هجعـةٍ وأَدْنَـى فـؤاداً مـن فـؤادٍ معـذَّبِ

أخذه من قول بشَّار :

ومُـزْتجَّـةِ الأعطـافِ مهضـومـةِ الحشـا تمُـور بسحـرٍ عينُهـا وتـدورُ
إذا نظـرتْ صبَّـتْ عليـك صبـابـةً وكـادت قلـوبُ العـاشقيـن تطيـرُ
خَلـوْتُ بهـا لا يَخلُـصُ المـاءُ بيننـا إلى الصُّبح دوني حاجبٌ وسُتورُ

(س) .

ولعلَّه إن جاوزها قصَّر معه شيئاً ما ، وضعفت أداتُه ضعفاً ما ؛ لأنَّه يكون شاعرُ الصَّنعة ، وهو يأباها ، ويكره أن يكون شاعراً من أجلها ؛ وقلَّما يجاريه أحدٌ في تلك الأغراض ، وهو الَّذي فتح أبوابها ؛ وحسبك : أنَّه المثال الَّذي احتذى عليه شوقي بك ؛ وقد ينقسم المعنى الواحد في رجلين حين يقدر ، فإذا لم يوجد أحدهما ؛ لم يوجد الآخر ، وأنا أرى ، وأعلم : أنَّه لولا صبري لما نبغ شوقي ، وكان هذا يختلف إليه ، يعرض عليه شعره ، ويرجع بآثار ذوقِه فيه ، وكذلك كان يفعل خليفةُ الباروديّ حافظ بك إبراهيم ؛ واسترفد شوقي من صبري باشا هذا البيت السَّائر :

صُونـي جمـالـك عنَّـا إنَّـنا بشـرٌ مـن التُّراب وهـذا الحسـنُ رُوحـانـي

فهو لصبري باشا ، والمرفدة : سنَّة معروفةٌ من قديمٍ ، وهي غير الانتحال ، وغير السَّرقة ، وما يسمَّى إغارةً وغصباً ؛ وقد استرفد[1] النَّابغةُ زهيراً ، فأمر ابنَه كعباً ، فرفدهُ ، والحكاية في ذلك مشهورةٌ عنه ، وعن سواه .

ولم يكن في مصر ممَّن يحسن ذوق البيان ، وتمييز أقدار الألفاظ بعضها من بعضٍ ، وألوان دلالتها كالبارودي ، وصبري ، وإبراهيم المويلحي ، والشَّيخ محمَّد عبده ، رحمهم الله جميعاً ؛ والبارودي يذوق بالسَّليقة ، وصبري بالعاطفة ، والمويلحي بالظَّرف ، والشَّيخ بالبصيرة النفَّاذة ؛ وذلك شيءٌ ركَّبه الله في طبيعة صبري لم يحصِّله بالدَّرس أكثر ممَّا حصله بالحسِّ ، ومن أجلِه كان يفضِّل البحتريَّ على غيره ، وهو بلا نزاع بحتريُّ مصر ، كما لقَّبوا ابن زيدون بحتريَّ المغرب ؛ وإنَّك لتجد بعض الألفاظ في شعر الرَّجل كأنَّها شعرٌ مع الشِّعر ، فتقف على العبارة منها ، وقلبك يتنفَّس عليها كأنَّها إنَّما وُضعت لقلبك خاصَّةً ، فهي تغمز عليه غمزاً ، وكأنَّها نَفْثَةُ ملَكٍ من الملائكة جاءتك في نَفسٍ من أنفاس الجنَّة .

ويمتاز نسيبه بأنَّه يكاد يكون في طهارتِه ، وعفَّتِه ضوءاً من جمال الشَّمس ، والقمر ، وهو عندي أنسب من العبَّاس بن الأحنف ؛ الَّذي صرف كلَّ شعرِه إلى هذا المعنى ؛ ولو أنَّ عصره كان عصر أدبٍ صحيحٍ لأخمل كلَّ شعراء هذا الباب ، من ابن ربيعة إلى طبقة عشَّاق العرب ، إلى أئمة الطَّريقة الغراميَّة لآخر القرن السَّابع .

---

(١) « استرفد » : استرفده : طلب معونته ، وعطاءه .

ومن غزلِه البديع قوله :

يـا مَـن أقـامَ فـؤادي إذْ تملَّكـه ... ما بين نارين من شوقٍ ومن شَجَنِ
تَفديك أعْينُ قومٍ حولك ازْدحمت ... عطشَى إلىٰ نهلة مِنْ وجهكَ الحسَنِ
جـرَّدْتَ كـلَّ مليـحٍ مِـن مـلاحتِـه ... لـم تتَّـقِ الله فـي ظبـيٍ ولا غُصـنِ

وقوله :

أقصر فـؤادي فمـا الـذِّكـرى بنـافعـةٍ ... ولا بشـافعـةٍ فـي ردِّ مـا كـانـا
سـلا الفـؤادُ الَّـذي شـاطـرتَـهُ زمنـاً ... خَفْـقَ الصَّبـابـة فـاخفـقْ وحـدَك الآنـا

ويا رحمة الله للقلب الَّذي يفهم هذا البيت ! فإنَّه ليجنُّ به من يكون فيه استعداد لهذا النَّوع من الجنون .

ومن قلائدِه الغراميَّة قوله :

يا آسِيَ الحيِّ هل فتَّشْتَ في كبدي ... وهـل تبيَّنـت داءً فـي زَوايـاهـا
أوَّاهُ مـن حُـرَقٍ أودت بمعظمهـا ... ولـم تـزلْ تتمشَّـى فـي بقـايـاهـا
يـا شـوقُ رفقـاً بـأضـلاعٍ عصَفـتَ بهـا ... فـالقلـبُ يخفِـقُ ذعـراً فـي حنـايـاهـا

وله قصيدة (تمثال جمال) وقد نظمها لتنقل إلى الفرنسويَّة ، ومن عيونها قوله :

وابسمـي ، مَـن كـان هـذا ثغـرُه ... يمـلأُ الـدُّنيـا ابتسـامـاً وازدهـاءْ
لا تخـافـي شططـاً مـن أنفـسٍ ... تعثـرُ الصَّبـوةُ فيهـا بـالحيـاءْ
راضـت النَّخـوة مـن أخـلاقنـا ... وارتضـى آدابنـا حسـنُ الـولاءْ
فلـو امتـدَّتْ أمـانينـا إلـى ... ملَـكٍ مـا كـدَّرتْ ذاك الصَّفـاءْ

والشُّعراء من أوَّل تاريخ الأدب إلى اليوم يقولون في معنى قولِه : « لا تخافي شططاً » الأبيات ، وما منهم مَنْ وفِّق إلى مثل هذا البيت الأخير ، وإن كان بعضهم بلغ الغاية ، كابن نُباتة السَّعديّ ، والسَّريِّ الرَّفاء ، وغيرهما .

ومن أبدع ما اتَّفق له في الوصف أبيات في الدَّواة[1] تخلَّص في آخرها إلى مدح النَّبي ﷺ ، وهو تخلُّصٌ ليس في الشِّعر العربيِّ كلِّه مثله في الإبداع ، وحسن

---

(١) « الدواة » : المحبرة .

الاختراع ، يقول فيها :

أكـرمـي العلـم وامنحـي خـادِميـه ... مـاءَكِ الغـالـي النَّفيـسَ الثَّمينـا
وابـذلـي الصَّـافـي المطهَّـرَ منـه ... لهـداةِ السَّـرائـر المُـرشـدينـا
وإذا الظُّلـم والظَّـلامُ استعـانـا ... يـوم نحـسٍ بـأجهـل الجـاهِلينـا
واستمـدَّا مـن الشُّـرورِ مـداداً ... فـاجعليـهِ مـن قسمـة الظَّـالِمينـا
واقـذِفـي النُّقطـة الَّتـي بـاتَ فيهـا ... غضـبُ القـاهـر المـذلِّ كمينـا
ليـراع امـرئٍ إذا خَـطَّ سطـراً ... نبـذَ الحـقَّ وارتضـى المَيْـن[1] دينـا
وإذا كـان فيـك نقطـةُ سـوءٍ ... كُـوِّنـتْ مـن خبـاثـةٍ تكـوينـا
فـاجعَليهـا قسـطَ الَّـذيـن استبـاحـوا ... فـي السِّيـاسـات حُـرمـة الأضعفينـا
وإذا خفـت أن يكـون مـن الصَّخـ ... ـر جـلاميـد تـرخِّـم السَّـامعينـا
فـابخلـي بـالمـدادِ بخـلاً وإن أعطيـ ... ـتِ فيـهِ المئيـن ثـمَّ المئينـا
فـإذا أعـوزَ المـدادُ طبيبـاً ... يصـفُ الـدَّاء دائبـاً مستعينـا
فـامنحيـهِ المـراد مَنّـاً وعُـرفـاً ... واستطيبـي معـونـة المحسنينـا
وإذا مهجـة الحمـائـم أسـدت ... نفطـةً سـرَّهـا الـزَّكـيَّ المصـونـا
فـاجعليهـا علـى المـودَّات وقفـاً ... وهبيهـا رسـائـلَ الشَّيِّقينـا
فـإذا لـم يكـن بقلبـك إلا ... مـا أعـدَّ الإخـلاصُ للمخلصينـا
فـاجعليـه حظِّـي لأكتـب منـه ... شـرح حـالـي لسيِّـد المرسلينـا

هذا والله هو الشُّعر ، وما وفق إلى مثلِه أحدٌ كائناً مَنْ كان في هذا العصر .

* * *

ولا نطيل بالنَّقل من شعرِه ، وتتبُّع أغراضِه ، فهو كالماس في الشَّمس ، يشعُّ من كلِّ جهة ، ولا يختلف ضوءُه إلا في بعض اللَّون ممَّا يكون الأجمل فيما كلُّه جمال ، ويمجُّ من الشُّعاع ما لا تجد حسنَه في الشُّعاع نفسِهِ ، وأحياناً يرقُّ كبعض البلَّور ، فيمتصُّ حرارة الشَّمس ، ويستوقد بها في ذاتِه ؛ ليُضرِم ما وراء قلبِه ، وما وراءهُ إلا قلوبُنا الحزينةُ عليه ، رحمه الله !

* * *

(١) « الميْن » : الكذب .